أسلوب البكاء و الحنين في شعر السِّجن لمعتمد بن عباد الأندلسي

Compassion and Sigh of Tenderness in the Prison Poetry of Mu'tamid b. 'Abbād al- Andalusi

د.سيد سيار على *

Abstract

Mu'tamid b. 'Abbād was the ruler of Taifa of Seville in Andalusia. Being a benevolent ruler, he also became known for his literary capabilities. In his own right, he is considered one of the greatest poets of Andalusia. Mu'tamid sent a delegation to Morocco, seeking for Yusuf b. Tashfin's assistance to save his vulnerable state from the looming threats of Christians, fearing its collapse. Due to his effective administration Tashfin took control of the kingdom, however, as he was significantly inspired by the beauty and historic legacy of Andalusia, he fought several battles and conquered Seville putting Mu'tamid and his family in prison. Living in utter destitution in the prison of Aghmāt, Mu'tamid passed away in miserable conditions after 4 years. While in prison, Mu'tamid mourned his piteous existence in fine verse, lamenting his cruel detention. This article focuses on Mu'tamid's grievance over the loss of his off springs and poor conditions of life in the prison of Aghmāt. It also discusses compassion and sigh of tenderness made by him in his this poetry.

Keywords: Mu'tamid b. 'Abbād prison poetry, compassion and sigh of tenderness

فتح المسلمون الأندلس سنة 92هـ على يد طارق بن زياد ومعاونة موسى بن نصير، وحكمه نحو ثمانمائة سنة، وتنقسم دولة المسلمين في الأندلس إلى ستة عصور، وهي: عهد الولاة، والأمويّة (الإمارة)، وملوك الطوائف، والمرابطين، والموحِّدين، وبني الأحمر.

وقد تنافس ملوك الطوائف في ما بينهم بالشعر و الأدب، و بناء القصور العالية، هذا وقد كانت بينهم الحروب لاختلافاتهم السِّياسيّة، حتّى تفرق أمر المسلمين في الأندلس، و استولى الأذفونش ملك الفرنجة على طليطلة و كتب رسالةً إلى المعتمد بن عباد ليخضع له و يجعل زمام دولته في يده، فكتب المعتمد إلى صاحب مراكش يوسف بن تاشفين يستنجده، فانهزم الأذفونش بوقعة الزّلاقة[1] على يد المعتمد بن عباد و يوسف بن تاشفين، لكنّ صاحب مراكش أعجب بما رآه من جمال الأندلس وجبالها الشامخات ومياهها الصافية وحدائقها البهيجة، المليئة بالأزهار، وبِركاتها وعيونها وأشجارها، وقصور الزاهي والمبارك والثُّريّا، فأراد الاستيلاء على إشبيليّة، فاستولى عليها، وسبى المعتمد بن عباد وأسرته الكريمة، وزوجته اعتماد الرُّميكيّة وبناته ومنهن بثينة: الأميرة الشاعرة.

* محاضر الدِّراسات الإسلاميّة بجامعة صوابي، صوابي.

حُمل المعتمد بن عباد مع أهله و عياله مقيّداً و أُدخل على يوسف بن تاشفين صاحب مراكش و أمير دولة المرابطين، فأمر بإرساله و من معه مِن أُسرته و أصدقائه إلى أغمات[2]، فسُجن في غياهب السِّجن و أعتقله وراء القضبان الحديديّة حتّى مات في زنزانة السِّجن سنة 488هـ.[3]

التعريف بالشاعر الملك المعتمد بن عباد:

هو محمد بن عباد الملّقب بالمعتمد، أشهر ملوك الطوائف بالأندلس، وآخر ملك دولة بني عباد، كان شاعراً وأديباً، ويعرف محاسن الشعر وجودته وفنَّه، وزوجته الرُّميكيّة الملقبّة باعتماد، كانت شاعرة ذات حسن وجمال، وحلاوة كلام، وشرافة أدب وبيان، وحبيبة الملك، فصارت أسيرة القضبان، وابنة المعتمد اسمها بثينة، فهي الأميرة الأسيرة، كانت شاعرة، تعلّمت الشعر والأدب في بلاط أبيها وشربت في أواني الذهب والفضّة، وعاشت عيش الترف والنعيم، وحُبست حينما أحيط بأبيها وأمها وأسرتها، ولها قصيدة مشهورة، مطلعها:

إسمع كلامي و استمع لمقالتي فهي السُّلوك بدت من الأجياد

لا تنكروا بأني سُبيتُ و أنّني بنتُ لملكٍ من بني عبّاد[4]

و كان المعتمد كثير الأولاد منهم، الرشيد عبد الله، و الراضي بالله، و المأمون و المؤتمن، و الظافر و عبد الجبار و شرف الدولة و فخر الدولة.[5]

بنىٰ المعتمد بن عباد في عصر دولته و خلافته قصوراً كثيراً، منها الزاهي، و الثُّريّا، و المبارك، و الوحيد، و أنشد الشعر في رثاء هذه القصور عند ما أُلقي خلف أبواب السوداء و في زنزانة الدامسة.

كان يحبُّ الشعر و الشعراء و الأدب و أهله، كما قال المقري "كان المعتمد أندى ملوك الأندلس راحةً، و أرحبهم ساحةً، و أعظمهم سماداً، و أرفعهم عماداً، و لذلك حضرته ملتقى الرِّحال، و موسم الشعراء، و قبلة الآمال، حتّى إنّه لم يجتمع في بلاط أحد من امراء عصره في الأندلس من أكابر الشعراء و الأدباء، ما كان يجتمع في بلاطه و حاشيته".[6]

شاعريَّة المعتمد بن عباد:

كان المعتمد بن عباد سيّد الشعراء في ملوك الأندلس، وزوجته الرُّميكيّة كانت شاعرة، وابنته بُثينة، وهكذا بنوه شعراء، ومما يدُّل على تميز شاعرية المعتمد، أنّه كان يدرِّب أولاده على الشعر والأدب[7]، وكان يجتمع حوله من الوزراء والشعراء ما لم يجتمع لِأحد من قبله عند ملوك الطوائف، كما نعلم أنَّ ابن عمّار وأبا بكر الداني عَلَم الوفاء، كانوا من أجود الشعراء في الأندلس مدحاه مديحاً جميلاً.

وكما ذكرتُ أنَّه من أعظم الشعراء وكان ينشد من أجود الشعر، وعند إمعان النظر نجد شعره في مختلف المعاني وتعبيراته حسب معانيها وأيّام حياته، فيمكن أن نقسمه في ثلاثة مراحلٍ:

المرحلة الأولى: الشعر الّذى أنشده في أيّام شبابه مليئً باللهو و المجون، يصف الخمر و مجالس الأنس، وله في الغزل، كما قال في جارية له:

أنا في عذابٍ من فراقك نشوانُ من خمرِ اشتياقك

فصلي جميل الظنّ بي وثقي فقلبي في وِثاقِك[8]

المرحلة الثانية: الشعر الّذى أنشده في أيّام ملكه ولا يختلف كثيراً في أغراضه عن شعره في المرحلة الأولى، إلّا بكونه أشدّ أسراً، وأكثر جزالةً وأعمق تجربة شعرية، ونضج شعره لِأجل اختلاطه مع أعظم الشعراء، وتعلّق بالكتب والرسائل وسماع الشعر من أفواه الشعراء الّذين لعبوا أدوارهم في الأدب العربي الأندلسي، كما أرسل قصيدةً إلى ابنه الراضي بالله:

الملكُ في طيِّ الّدفاتر فتخلّ عن قودِ العساكر

طُف بالسرير مسلّماً و ارجعْ لِتوديعِ المنابر[9]

المرحلة الثالثة: إنَّ شعره الَّذى أنشده في غياهب السِّجن و خلف الأسوار، وصف حاله في سجن أغمات، و رثى قصوره الّلاتي بناها، من الزاهي و الثُّريا و المبارك، و بكى على أهله و أولاده، كما قال:

يقولون صبراً، لا سبيل إلى الصبر سأبكي و أبكي ما تطاول من عمري

مدى الدهر فليبكِ الغمام مصابةً بصنويه يعذر في البكاء مدى الدّهر[10]

أيَّام المعتمد بن عباد في سجن أغمات:

كان المعتمد بن عباد في سجن أغمات، المقيّد بالسّلاسل والأغلال، وبقي محبوساً أربع سنوات حتّى أنفذته المنيّة، وأثقلت القيود على رجليه حين ثار ابنه عبد الجبار في الأندلس، وهو لا يعلم من أمر أسرته أن بناته كُنّ يغزلن للناس الصوف على المغزل بأجرةٍ، ولما أخبر به المعتمد فأنشد قصيدةً في السِّجن يذكر فيها أحوالهنَّ:

ترى بناتك في الأطمار جائعةً يغزلن للنّاس، لا يملكن قطميرا

برزْنَ نحوك للتّسليم خاشعةً أبصارُهُنَّ حسيراتٍ مكاسيرا

يطأن في الطِّين و الأقدامُ حافيةً كأنّها لم تطأَ مِسكاً و كافورا[11]

كان ينشد القصائد في السِّجن و تسمّى تلك القصائد بالأسريات، عبّر بها عن تجربةٍ حقيقيّةٍ لحياة الذل الَّتي عاشها هذا الملك في سجنه بعد حياة العزّة و الكرامة و المجد و الكبرياء.

زار الشاعر أبو بكر بن لبانة[12] المعتمد بعد أسره في سجن أغمات و أنشد هذه الأشعار:

تبكي السَّماء بدمعٍ رائحٍ غادي على البها ليلٍ من أبناء عبّاد

على الجبال الّتي هُدّت قواعدُها وكانت الأرض منها تحت أوتار[13]

قال لسان الدين ابن الخطيب وقفت على قبر المعتمد بأغمات، و في جانبه قبر اعتماد، فقرضت هذه القصيدة:

قد زُرتُ قبركَ عن طوع بأغمات رأيتُ ذلك من أولى المهمّات[14]

صيغ البكاء في شعر السُّجون للمعتمد بن عبّاد:

كان المعتمد بن عباد في سجن أغمات نحو أربع سنوات، من 1091م إلى 1095م، حتّى مات فيه، و نرى الشاعر الملك السِّجين في هذه الفترة الحزينة الباكية و المؤلمة، و يسكب الدموع و يعبّر عن آلامه الّتي تلقاه.

والشاعر السِّجين أورد صيغة " بكى" في شعره الّذي أنشده خلف القضبان الحديدية، والفترة الأليمة الحزينة ستاً وعشرين مرةً في صور متباينة وهي كما يلي:

بكى المبارك، بكى الوحيد، بكى الزاهي، بكتْ، سأبكي، و أبكي، فيبكِ الغمام، البكاء، تبكي العين، تفزع للبكاء، تبكي بدمعٍ، بكت ما لي لا أبكي؟، بكتْ واحداً، بكتْ لم تُرق دمعاً، أبكي لِألِاف، تبكيها، أبكي لحزني، بكيتُ فتحاً، أبكي و تبكي، سيبكي، سيبكيه، بُكاء، بكيتُ، يبكي.

مع العلم أنَّ المعتمد بن عباد لم يقف أمام يوسف بن تاشفين باكياً مسترحماً، فما استعطف وما اعتذر له قطُّ إلى أن مات، لكنَّ الشاعر يذكر عن آلامه وصعوبة الدهر وحوادثه، وثقل القيود وحاله.

بكاء المعتمد في السِّجن على القصور:

بكاء الشعراء والملوك يكون على الدول و القصور، و يُوجد مثل هذا اللون في الشعر العربي الجاهلي و انتقل هذا الأسلوب إلى العصر الإسلامي و العباسي و هكذا في الأندلس.

والشاعر الملك المعتمد بن عباد أنشد في السِّجن قصائد رثائيةً وهو يبكي على قصور مملكته عند ما طال عليه الأسر واشتدّ عليه البلاء وصعب عليه أمر الاعتقال والحبس، فقال:

بكى المبارك في إثر ابن عباد بكى على أثرِ غزلان و آساد
بكت ثُريّاهُ لا غُمَّت كواكبها بمثل نوءِ الثُّريّا الرائح الغادي
بكى الوحيدُ،بكى الزاهي وقُبَّته والنَّهر و التَّاج كلُّ ذُلُّه بادي
ماءُ السَّماء على أبنائه دُررٌ يا لُجّة البحر دُومي ذات أزباد[15]

إنَّ المبارك، و الثُّريّا و الوحيد و الزاهي من أسماء القصور قد رثى بها المعتمد و بكى عليها، و بكاءه يدُلُّ على أنّ حسرة سقوط دولته لم تفارق من قلبه إلى أن مات، و عند مرور وقته في سجن أغمات فما ترك بكاءه على قصوره المشيّدة بل عندما هو يذكر منها فيضاعف و يزداد من حنينه عليها.

ففي هذه الأبيات نجد كلمة "بكى" وردت مكررةً و التكرار لا يأتي إلاّ للتأكيد على شيءٍ فيؤكد هنا على الحنين، و يريد بها أنّه مغموم و يتمنى إلى الرجوع.

الشاعر السِّجين يذكر هذه القصور و القباب وقد أصبح غريباً و أسيراً منفياً في المغرب و إنّ منبر خطابته و عرش إمارته ليبكيانه:

غريبٌ بأرض المغربين أسيرُ سيبكي عليه منبرٌ و سريرٌ
بزهرها السّامي الذُّرى جادهُ الحيا تُشيرُ الثُّريّا نحْونا و نشير
و يلحظنا الزّاهي و سعدُ سعوده غيُورين والصَّبُّ والمحبُّ غيُورُ[16]

قال ابن بسام بعد ما نقل هذه الأبيات" أنَّ الثُّريا و سعد السعود، و الزاهي الّلاتي ذكرت في هذه الأشعار من أسماء القباب و القصور كان تأنّق في بنيانها من قصور إشبيليّة".[17]

قال شوقي ضيف: إنَّ الشاعر المعتمد يبكي إمارته و دولته و ما كان فيه من عزٍ و سلطان و أبهة و حياة مرفهة، و هو يبكي و يظل و يذرف الدمع مدراراً.[18]

بكاء المعتمد و الحنين على نفسه المعتقَل:

أنشد الشاعر السِّجين و الملك الحزين القصائد السِّجنيات وأغماتيات في زنزانة السِّجن وعبّر عن آلامه النفسيّة وصعوبات حبسه ومحنه ونكباته اعتقاله، كما مرّ عليه في موضع حبسه [19] و قيده سرب القطا، فهيّج كوامن ذكرى الحريّة في نفسه، و بكى على حاله، فقال:

بكيتُ إلى سِربِ القطا إذ مررْن بي سوارحَ، لا سجنٌ يعُوق و لا كبلُ

و لم تكُ والله المعيذ حسادةً و لكن حنيناً أنَّ شكْلي لها شكلُ

فأسرعُ لا شملي صديعُ ولا الحشا وجيعُ و لا عيناي يُبكيهُما ثُكلُ

ألا عصمَ الله القطا في فراخها فإنَّ فراخي خانها الماءُ و الظلُّ[20]

فقد رأى الشاعر المعتمد بن عباد جماعات القطا وسِرْبَها تطير في الهواء، وصوّتت: قطا قطا، وتقطع المسافة بلا مشقّة وكئبٍ، فأنشد الشاعر السِّجين هذه الأبيات وعبّر عن حريّة القطا، وعن نفسه المعتقل، ووصف طيرانها وبكى على قيده وحبسه.

قد ضمن الشاعر البيت الأوّل بشعر مجنون، الّذي جلس مرّةً مفكر حزيناً ثمّ هام على وجهه، فبينما هو سائر إذ مرّ بِسرب من قطا يتطاير، فقال:

شكوت إلى سرب القطا إذ مررن بي فقلتُ و مثلي بالبكاء جدير

أسرب القطا هل من معيرٍ جناحه لعلّي إلى من قد هويتُ أطيرُ

و أيُّ قطاةٍ لم تعرني جناحها فعاشت بضر والجناح كسير[21]

فأقول في تحقيق المقام أنَّ المعتمد إن كان هو في الاعتقال والمحنة والنكبة لكنّ فكره وذهنه وضبط الأشعار العربية الجاهلية ومتابعة الأسلوب البلاغيّ يدل على قوة علمه بالورثة القديمة، وخاصة بالأدب العربي القديم، وإن كان هو في أيّام الحريّة مشغول في أمور الدولة والحروب والسَّهر على رعيته.

وذكر "قطا" في شعر المعتمد ليس غريباً لِأنَّ شعراء العرب تصف طير "القطا" بحسن المشي لتقارب خطاها، وتشبه مشي النساء، كما وصف ذلك كميت بن زيد الأسدي:

يمشين مشي قطا البطاح تأوُّداً قب البطون رواجح الأكفال

و إذا أردن زيارةً فكأنّما ينقلن أرجلهنّ من أوحال[22]

و ذكر طير "قطا" و صوته في شعر الشاعر السِّجين ملازمة للصدق و الهداية، كما في المثال:

"أهدى من قطاة" يعني هي تقطع المسافة البعيدة ليلاً لورود الماء ثم تعود إلى مفحصها و فراخها دون أن تُخطئها، و هكذا في حديث الرسول صلى الله عليه و اله وسلّم"من بنى مسجداً كمفحص قطاة أو أصغر بنى الله له بيتاً في الجنّة"[23] وقد أشار كثير من أهل العلم إلى النُّكتة في ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم بناء المسجد مع ذكر مفحص القطاة، لِأنّ القطاة ملازمةٌ للصدق، و كذلك من أراد بناء مسجدٍ فلا بُدَّ من الصدق و الإخلاص في ذلك.

بكاء المعتمد في السِّجن على أهله و عياله و أولاده:

لقد حزن ونكب المعتمد بن عباد قبل دخوله في السِّجن بفقد ولده المأمون، الذي يكنّى بأبي الفتح، حينما ولّاه المعتمد قرطبة، وقد قُتل في إبّان الأحداث، سنة 484هـ. فتضاعفت آلامه وأحزانه لما قُتل ابنه الراضي على يد المرابطين، وأحيط بالمعتمد وأسرته وبناته الأميرات، فبكى الشاعر الملك السِّجين في غياهب السِّجن ببكاءٍ شديد وعبّر عن بكائه وحنينه بالأبيات التالية:

يقولون صبراً لا سبيل إلى الصبر سأبكي وأبكي ما تطاول من عمري
هوى الكوكبان الفتحُ ثم شقيقه يزيدُ، فهل عند الكواكب من خبر
يُعيدُ على سمعي الحديد نشيدهُ ثقيلاً فتبكي العين بالجسّ و النّقر
فتبكي بدمع ليس للقطر مثلُه و تزجُرها التقوى فتُصغى إلى الزجر[24]

فكيف يمكن الصبر؟ وكيف لا ينشق القلب؟ إذا يفقد الوالد ولدَين معاونَين له في شؤون الدّولة وسياستها، وكيف لا يبكي الوالد إذا أحُيط بأسرته الملكيّة، وزوجته الحبيبة، وبناته الأميرات، يغزلن للنّاس لينفقن على أنفسهنَّ، وأولاده الآخرين ما بين السّلاسل والأغلال، في غياهب زنازين سجن أغمات، كما دخل عليه ابنه أبو هاشم، وهو مكبولٌ مغلولٌ، فبكى المعتمد وأنشد:

ارحم طُفيلاً طائشاً لُبّه لم يخش أنْ يأتيكَ مُسترحماً
و ارحمْ أُخيّات له مثله جرعتَّهنّ السم و العلقما
منهنّ من يفهم شيئاً فقد خفنا عليه للبكاء العمى[25]

قال ابن خاقان: و أوّل عيد أخذ المعتمد بأغمات، و هو فى السِّجن بمراكش، فدخل عليه من أولاده ليُسلّم عليه و يهنّيه و فيهم بناته و عليهنّ أطمار كأنهّنّ كسوف و هنَّ أقمار، و يُبدين الخشوع بعد التّخايل، و الضِّياع فقد غيَّر صورهنَّ، و حيّر نظرهنّ، و أقدامهنَّ حافيةً،[26] فقال:

فيما مضى كنتُ بالأعيادِ مسروراً فساءك العيدُ في أغمات مأسوراً
ترى بناتِكَ في الأطمار جائعةً يغزلن للنّاس ما يملكن قطميرا
برزن نحوك لتَّسليم خاشعةً أبصارُهنَّ حسيراتٍ مكاسيرا
يطأن في الطين و الأقدام حافيةً كأنّها لم تطأ مسكاً و كافورا[27]

لقد حرّك مظهر الشاعر السِّجين في نفسه الأسى والألم، فتحولّت فرحة العيد بالهمّ و الغمّ، فبكت خلف الأسوار وبقرب القضبان الحديدية جميع الأسرة الأميريّة، وسالت الدموع، وفاضت عيونها، فكيف لا يبكي هناك أبوها؟ الّذى لا يملك دفع الضُّر عنها، ولا يستطيع أن يخرج من الاعتقال، فبكى في زنزانته الدامسة، وعبّر عن هذه الآلام والنكبات والمحن المهينة، بشعره وكتب الأبيات بمداد الدموع، فبكى إلى أن مات في غياهب السِّجن، ومسحت المنيّةُ دموعه، وسكت انسكابه بموته.

و يشير الشاعر في البيت الأخير "يطأن في الطين ... مسكاً وكافورا" إلى قصّة مشهورةٍ و هي أنَّ الرُّميكيّة زوجة الملك المعتمد رأت الفتيات بائعات اللبن، يمشين في الطين فأرادت المشي فيه، فأمر زوجها المعتمد، فجمعت الأزهار،

وأوراق الياسمين ومن أنواع الطيب، وذُرّت ونثرت في صحن القصر وعمته ثم نُصبت الغرابيل، وصب فيها ماء الورد، وعُجنت وعودت كالطين، وتولجتها مع بناتها، فأشار المعتمد إلى هذه الحادثة في السُّجن حينما رأى بناته حافيات الرجلين.[28]

قال ابن خاقان: أنَّ المعتمد رأى قمريّة نائحة و حنينة في عشها، و أمامها وكرٌ فيه طائران يغرِّدان ترُّنماً، فقال:

بكتْ أن رأت إلفين ضمهما وكرٌ مساءً و قد أخنى على إلفها الدهر
بكتْ و لم يرق دمعاً، و أسلبت عبرةً يُقصرُ عنها القطر مهما هما القطر
وناحت و باحت و استراحت بسرَّها و ما نطقتْ حرفاً يبوحُ به سرُ[29]

نرى في هذه الأبيات تكرار كلمة "بكى" و هذا التكرار يدُلُّ على كثرة بكاء الشاعر السِّجين المغموم، وهكذا أورد كلمة "القطر" بعد "دمع" و هو يشبّه دموعها بقطرات المطر، وأمّا كلمة "ناحت" أيضاً فتدُلُّ على صوت البكاء الحزين الذي يصدر من فم القمري، فمن المثير في بكاء المعتمد أولاده أنَّه لا يبكيهم وحده، و لكنه يشرك في بكائه الطيور أيضاً، وهو يلوم نفسه بأن دموعه لا تسيل كمثل المطر الغزير، على فقدان أولاده، وكيف لا تسيل دموعه؟ لِأنَّ له قلباً حزيناً كما قال:

فما لي لا أبكي أم القلب صخرة؟ و كم صخرة في الأرض يجري بها نهر
بكت واحداً لم يشجها غير فقده و أبكي لألأف عديدهم كُثرُ
غدرتُ إذن إن ضنَّ جفني بقطرةٍ و إن لؤمت نفسي فصاحبها الصبرُ
فقل للنجوم الزهر تبكيهما معي لمثلهما فلتحزن الأنجم الزُّهر[30]

نرى أنَّ الشاعر هو يبكي همومه وغمومه وفقدان أولاده، وهو يقول كيف يمكن لي أن لا أبكي عليهم؟

لِأنَّ قلبه ليس بحجر، وإن كان من الأحجار من تخرج منها المياه الصافية، وهو لا يبكي بنفسه فقط بل يقول إنَّ نجوم السَّماء أيضاً تبكي معه، ونجد كلمات البكاء مكررة في أبيات الشاعر وهذا يدل على كثرة انسكاب الدموع لا من عيني الشاعر بل من عيون الكون أيضاً.

اقتبس الشاعر من آي القرآن الكريم ليقوي بها المعنى ويستدُّل على أنّه لا يتأنب ولا يُعتاب ببكائه لِأنَّ من الأحجار أيضاً يشقّق ويخرج منها الماء، كما قال الله سبحانه وتعالى: "ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ط وَ إنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لِما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنهارُ ط وَ إنَّ مِنْهَا لِما يَشَّقَّقُ فَيَخرُجُ مِنهُ الماءِ"[31]

و كما انفجر الماء من حجر موسى عليه السَّلام لما ضربه بعصاه، و قال سبحانه و تعالى " وَ إذِ استَسقَىٰ مُوسٰى لِقَومِهِ فَقُلنَا اضْرِبْ بِعَّصَاكَ الحَجَرَ ط فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثنَتَا عَشَرَةَ عَيناًط"[32]

فاستدلاله بآيات القرآن الكريم من وجه المعنى، لِأنَّ الحجر هو أشدُّ قسوةً و صلابةً من قلب الإنسان، لكنّ بعض القلوب من حيث قبول الأثر و قطع النظر من حيثية الماديّة أشدُّ غِلظةً و صلبةً من الحجر.

و قال الشاعر السِّجين الباكي يقول:

يا عينُ، عيني أقوى منك تهتاناً أبكي لِحُزني، وما حُمّلتُ أحزاناً
بكيتُ فتحاً فإذا ما رمتْ سلْوته ثوى يزيدُ ففزاد القلبُ نيرانا

أبكي و تبكي و نبكي غيرنا أسفاً لدى التّذكر نسواناً و وِلدانا[33]

فالشاعر المعتمد بن عباد يبكي في رثاء الأولاد حينما رأى المطر ينهمر فاتجه إليه الشاعر السِّجين يخاطبه ويقول: يا عينُ أي المطر، عيني أقوى منك ذرفاً لدمعها المنهمر، والفرق بيني وبينك أنّني أبكي حُزناً وألماً لِأنّني فقدتُ الأولاد والأسرة، وأنت تبكي من غير حُزنٍ وحسرةٍ.

وهذه الأبيات تدُلُّ على بكاء الشاعر بكاءً متوالياً بتوالي المصائب عليه، فيقول: فقدت ولدي الفتح وبكيته وعندما أوشكت على السلوان قضى أخوه يزيد نحبه، وبلغني خبر مقتله فازداد الحزن، ثُم يدعو لهما بالمغفرة والرضوان، ويلقي عليهما سلاماً منه ومن أمهما الثكلى بعد أن بكى عليهما، وبكت أيضاً معه وأبكيا غيرهما لبكائهما.

أقول في تحقيق المقام أنَّ الشاعر قال "ياعين" قال مرتضى الزبيدي: هو جريان الماء و الدَّمع كما يقال: عان الماء و الدّمع يعينُ عيناً و عيناناً أي جرى و سال.[34]

قال أيضاً: إذا كان المطر من ناحية القبلة فهو مطر العين، و هكذا العين بمعنى السّحابة[35]، كما قال عنترة بن شداد:

جادت عليها كلُّ عينٍ ثرّةٍ فتركن كُلَّ حديقةٍ كالدِّرهم[36]

و نرى الشاعر المعتمد بن عباد يستعمل صيغة "بكى" خمسة مرارٍ في هذه القطعة الشعريّة، فتكرار اللفظي يدُلُّ على كثرة البكاء و سيلان الدموع و انسكابها من عيني الشاعر المخزون و المكبول.

موازنة بكاء المعتمد في شعره السِّجن ببكاء الشعراء السُّجناء الأندلسية في الحبس و الاعتقال:

كما نعرف فإنَّ السِّجن هو الموضع الّذي يعتقل فيه الإنسان، ويحبس فيه البشر، وأسباب الدخول والقيد مختلفة، بين السِّياسة والعشق والمحبّة والدّين والقبض على أموال الغير والظلم والضرب ... ومهما يكن من سببٍ، فقد اعتقل كثير من الشعراء والأدباء في سجون الأندلس، لكنّهم أوقدوا قناديل الشعر بدموع بكائهم و بأنواع المعاني وتعبيراتهم، وبالمدح والاعتذار والحنين والرثاء ووصفوا أحوالهم وأغلالهم.

ونجد انسكاب الدموع في شعر السُّجون منذ العصر الجاهلي إلى عصرنا اليوم بتعبيرات متنوِّعة وبمعاني متفرّقة حسب قوّة فكرة الشاعر السِّجين ونكبته وكربته، وقد تعدّدت أساليب البكاء والحنين في شعر السُّجون ومعانيه باختلاف أحوال الشعراء، لكن عند إمعان النظر وجدنا بكاء بعض الشعراء السُّجناء في الأندلس أشد وأقوى وأعمق من بكاء غيرهم، فلذلك سنوازن بكاءهم الشعري في السِّجن ببكاء المعتمد في سجن أغمات.

قال المعتمد بن عباد في رثاء الأولاد حتّى أغرق في خياله وأنزل النجوم بمنزلة العاقل وجعلها باكيةً معه، مبالغةً في التعبير عن حزنه وآلامه:

فقل للنجوم الزهر تبكيهما معي لمثلهما فلتحزن الأنجم الزُّهر[37]

وقال أيضاً:

يا عينُ، عيني أقوى منك تهتاناً أبكي لِحُزنٍ، و ما حُمِّلتَ أحزاناً

و نارُ برقك تخبو إثر وقْدتها و نارُ قلبي تُلفى الدّهر بُركاناً[38]

و في مثل هذا المعنى قال أبوبكر بن عمّار[39] خلف القضبان:

عليّ و إلا ما بكاءُ الغمائم؟ و فيّ و إلا ما نياحُ الحمائم

و عنّي أثار الرّعد صرخة طالبٍ ... لثأرٍ، و هزّ البرق صفحة صارم

وما لبستْ زُهرُ النجوم حدادها ... لغيري، و لا قامتْ له في مآتم[40]

وقال الوزير هاشم بن عبد العزيز الأندلسي[41]، مقتول السِّجن:

فكم عضّة بالدّمع نهنهتُ خوف أن ... يُسرُّ بما أيديه شنآنُ كاشحُ

تحاملتُ عنهُ ثمَّ نادمتُ في الدُّجا ... نُجوم الثريّا والدُّموع سوانح[42]

و هذا الأسلوب نجده في شعر جرير أيضاً، كما أنشد في رثاء عمر بن عبد العزيز:

و الشمس كاسفةٌ ليست بطالعةٍ ... تبكي عليك نجوم اللّيل و القمرا[43]

نرى في أبيات المعتمد وابن عمّار وهاشم بن عبد العزيز أثر بكائهم فقد أشركوا معهم في بكاءهم بكاء نجوم السّماء والبرق والغمام، والثُّريا، وفي شعر جرير التعقيد اللفظي معروف في علم الفصاحة والبلاغة.

والتعقيد هو الكلام الّذي غير ظاهر الدلالة لمعنى المراد به، ويكون في اللفظ أو المعنى.[44] ففي هذه الأبيات يوجد التعقيد اللفظي.

قال المعتمد حينما رأى قمريّة نائحةً وأمامها وكرٌ فيها طائران يغردان:

بكتْ أن رأت إلفين ضمهما وكرٌ ... مساءً و قد أخنى على إلفها الدهر

بكتْ و لم يرق دمعاً، و أسلبت عبرةً ... يُقصرُ عنها القطر مهما هما القطر

وناحت و باحت و استراحت بسرّها ... و ما نطقتْ حرفاً يبوحُ به سرُ[45]

و قال يوسف بن هارون الرمادي[46] و هو في الحبس و الاعتقال:

على كبري تهمي السَّحاب و تذرُف ... و من جزعي تبكي الحمام و تهتف

كأنَّ السَّحاب الواكفات غواسلي ... و تلك على فقدي نوائح هُتّف[47]

و في هذا المعنى ما قال عبد الملك بن شُهيد الأندلسي[48] و هو في زنزانة السِّجن:

و قلتُ لصدّاح الحمام و قد بكى ... على القصر إلفاً و الدُّموع تجُود

ألا أيّها الباكي على من تُحبُّه ... كلانا مُعنىً بالخلاء فريد

و ما زال يبكيني و أبكيه جاهداً ... وللشوق من دون الضُّلوع وقود

إلى أن بكى الجُدرانُ من طُول شجونا ... و أجهش بابٌ جانباه حديد[49]

و رأى المعتمد في السِّجن مرة سرب قطا، تهوي في الهواء، فأنشد:

بكيتُ إلى سرب القطا إذ مررن بي ... سوارح لا سجنٌ يعوقُ و لا كبلُ

فاسرح لا شملي صديعٌ و لا الحشا ... وجيع و لا عيناي يُبكيهما ثكلُ[50]

فأقول في تحقيق المقام أنَّ المعتمد والشعراء الآخرين الّذين نكبوا بمحنة السِّجن والاعتقال قد تفنّنوا في إسناد هذا البكاء إلى أشياء مختلفة، منها: النجوم، والحمامة والقمريّة، والسّحاب والمطر والسّماء، لِأنّ قطرات المطر

تشبه بقطرات الدموع، وانصباب ماءه بانصباب العين، فيُصيرون الشعراء السُّجناء بطريق المجاز إيماءً إلى الحقيقة، وإثبات البكاء للجمادات والكون و الطيور و الغمام و السَّحاب بطريق الاستعارة و التشبيه، و هذا يدُّلُ على إغراقهم في الحزن.

وقد ذكر شاعر الشرق العلامة محمد إقبال في شعره استغاثة المعتمد وبكاءه في السِّجن تحت عنوان: "**قید خانے میں معتمد کی فریاد**" يقال:

اک فغانِ بے شرر سینے میں باقی رہ گئی — *سوز بھی رخصت ہوا، جاتی رہی تاثیر بھی*
مردِ حر زنداں میں ہے بے نیزہ و شمشیر آج — *میں پشیماں ہوں، پشیماں ہے مری تدبیر بھی*
خود بخود زنجیر کی جانب کھچا جاتا ہے دل — *تھی اسی فولاد سے شاید مری شمشیر بھی*
جو مری تیغ دودم تھی اب مری زنجیر بھی — *شوخ و بے پروا ہے کتنا خالق تقدیر بھی*[51]

الملخص:

استخلصت من هذا البحث أنّ الشاعر الملك المعتمد بن عباد ذاق طعم السِّجن المرير أربع سنوات حتّى مات في سجن أغمات، وقد اعتقله أمير المرابطين وصاحب مراكش يوسف بن تاشفين، وحُبست أسرة الشاعر خلف الأسوار وقضبان السِّجن، وقُتل له ولدان معاونان في شؤون الدولة والحكومة، فتأثَّر الشاعر السِّجين تأثراً شديداً.

ونجد تأثير السِّجن والنكبات والمحن الّتي دارت حول المعتمد بن عباد في آخر أيّام حياته أثراً بالغاً في شعره الّذى أنشده وراء القضبان الحديديّة، حتّى حولت طبيعة الشاعر إلى البكاء والحنين، فأنشد القصائد البكائية، والقطعات الأسريات، ونحن نسمع بكاءه اليوم في صورة شعره.

وعند إمعان النظر نجد شعره وقصائده الاعتقاليات والأغماتيات تدور حول المعاني المختلفة لكنّ نكتة التركيز ومحورها هي بكاؤه على نفسه وأهله وأولاده وعلى القصور الّتي بناها في إشبيليّة، من الزاهي والمبارك والثُّريا والوحيد.

وهكذا انسكبت دموعه فأصبحت قصائده أصدق عاطفة وأشدُّ تأثيراً في النفوس، وأورد صيغة "بكي" في صورةٍ متباينةٍ بستّ وعشرينَ مرةٍ في شعره الّذى أنشد خلف القضبان الحديديّ وفي زنزانة سجن أغمات، ومع أنَّه لم يقف أمام يوسف بن تاشفين باكياً مسترحماً، ما استعطف وما اعتذر له قطُّ إلى أن قبضته المنيّة ونُزعت الروح من جسمه الفاني، بل إنَّه بكى على آلام السِّجن وصعوبات الدّهر وحادثاته، وبثقل القيود وحاله وبفراق أولاده.

ونرى أنَّه ما خرج من شعور الإنسانيّة والقيم الأخلاقيّة الّتي تلازم عظماء الرّجال، وإن كانت هذه الكربات والنكبات والمحن وقتل الأولاد وزوال الحكومة وتذليل البنات المحصنات تذهب بالعقل الإنساني وشعوره، لكنّها ما أذهبت عقل المعتمد وما خبط، وأمّا بكاؤه فهو من الطبائع الإنسانيّة الّتي تدُّلُ على رِقّة القلب والرَّحمة واللطف واللين.

الهوامش والمصادر

[1]– ابن خلكان، أحمد بن محمد. وفيات الأعيان. ط: 1970م، دار صادر بيروت، ص 22/5

[2]– **أغمات**: أغمات موضع من أرض المغرب قرب مراكش، و أهلها فرقتان، يقال لأحدهما الموسوية، من أصحاب ابن ورصند، و الغالب عليهم جفاء الطبع و عدم الرِّقة، و الفرقة الأخرى مالكيّة حشوية، و بينهما القتال الدائم، و كل فرقة تُصلّى في الجامع منفردة بعد صلوة الأخرى. انظر: الحموي، ياقوت بن عبدالله. معجم البلدان. 1977م، دار صادر بيروت، ص 225/1

[3]– وفيات الأعيان. ص 5/ 22

[4]- كحالة، عمر رضا. أعلام النساء. مؤسسة الرسالة بيروت. ص 1/ 118
[5]- المقري، أحمد بن محمد. نفح الطيب. ط: 1988م، دار صادر بيروت، ص 1/ 626
[6]- نفس المصدر. ص 1/ 626
[7]**. جودت الركابي. في الأدب الأندلسي. ط: 1960م، دار المعارف، مصر، ص 93**
[8]- المعتمد بن عباد. ديوان المعتمد بن عباد. تحقيق: أحمد بدوي. ط: 1995م، المطبعة الأميرية بالقاهرة، ص 62
[9]- نفس المصدر. ص 46
[10]- نفس المصدر. ص 105
[11]- نفس المصدر. ص 100، نفح الطيب.ص 6/ 10
[12]- **ابن اللبانة:** أبو بكر بن عيسى الدّاني، كانت أمّه تبيع اللبن لتعليمه، كان قصير القامة، ترك مدينة دانية و قصد حكّام إشبيليّة، فمدحهم بمدح جيدٍ، و ظلّ وفياً للعباديين أثناء حلمهم و بعد سقوط دولتهم، و زارَ المعتمد بن عباد في سجنه و تبادل الأشعار في ما بينهما، مات 507هـ. انظر: ابن بسام، علي. الذخيرة. ط: 1998م، دار الكتب العلمية بيروت، ص 666/3
[13]- ابن الأثير، محمد بن محمد. الكامل في التاريخ. ط 1: 1987م، دار الكتب العلمية بيروت، ص 8/ 470
[14]- نفح الطيب. ص 5/ 238
[15]- ديوان المعتمد بن عباد. ص 95، نفح الطيب. ص 6/ 10
[16]- ديوان المعتمد بن عباد. ص 99
[17]- الذخيرة. ص 3/ 660
[18]- شوقي ضيف. تاريخ الأدب العربي، عصر الدول و الإمارات في الأندلس. ط: 1989م دار المعارف، قاهرة، ص 341
[19]- القطا:هو من الطيور التي لا تعيش إلا بقرب الماء و وجوده، و عند فقدانها يطير إليها لمسافاة بعيدة جداً، و يحمل قطرات الماء لفروخه و لصغاره و يضع الماء داخل ريش البطن،و يعيش طائر القطا في صورة جماعات متصلة بعضها ببعض، وهذا الطير مشهور ومعروف بين شعراء العرب.
[20]- ديوان المعتمد بن عباد. ص 110
[21]- مجنون، قيس بن الملوح. ديوان قيس بن الملوح. تحقيق: يُسري عبد الغني. ط1: 1999م، دار الكتب العلميّة بيروت، ص 97
[22]- كميت بن زيد. ديوان كميت بن زيد الأسدي. ط 1: 2000م، دار صادر بيروت، ص 353
[23]- ابن ماجة، القزويني، محمد بن يزيد.سنن ابن ماجة. رقم الحديث:738. ط 1: 1998م، دار الجيل بيروت، ص 57/2
[24]- ديوان المعتمد بن عباد. ص 105
[25]- نفس المصدر. ص 112
[26]- ابن خاقان. الفتح بن محمد. قلائد العقيان. ط1: 1989م، مكتبة المنار، أردن، ص 95
[27]- ديوان المعتمد بن عباد. ص 100، قلائد العقيان. ص 96
[28]- جودت الركابي، في الأدب الأندلسي. ص 97
[29]- قلائد العقيان. ص 100
[30]- نفس المصدر. ص 100
[31]- سورة البقرة 2: 74
[32]- سورة البقرة 2: 60
[33]- ديوان المعتمد بن عباد. ص 69
[34]- الزبيدي، محمد مرتضى. تاج العروس. ط1: 2001م، مؤسسة الكويت، ص 35/ 440
[35]- تاج العروس.ص 35/ 447

[36]- عنترة بن شداد.ديوان عنترة بن شداد. ط1: 1964م، المكتب الإسلامي قاهرة، ص 202

[37]- ديوان المعتمد بن عباد. ص 68

[38]- ديوان المعتمدبن عباد. ص 69

[39]- أبو بكر بن عمار بن الحسين ولد في قرية " شنَّبوس" من أعمال مدينة " شلب" عام 422هـ الموافق 1031م، كان من عائلة فقيرة متواضعة، اتصل ببلاط ابن عباد، و مدح المعتمد و بعد مرور الوقت وقع النزاع بينه و بين المعتمد فهجاه، فألقي في السِّجن و قُتل في حالة الاعتقال سنة 477هـ. انظر: الذهبي، محمد بن أحمد. سير أعلام النبلاء. 1985م، مؤسسة الرسالة بيروت، 582/18

[40]- الذخيرة. ص 2/ 223

[41]- هاشم بن عبد العزيز ولد في عهد عبد الرحمن بن الحكم، و أعلى منزلته في دولة محمد بن عبدالرحمن، فكثُر حسّاده لمنزلته عند الأمير، كان حارباً وصاحب الرمح و السيف، لكنّ أساء الأدب مع المنذر، فحبسه وأهله في السِّجن، حتّى قُتل فيه. انظر:نفح الطيب. 3/ 372

[42]- نفح الطيب. ص 3/ 373

[43]- جرير بن عطيّة. ديوان جرير بن عطيّة. ط: 1986م، دار بيروت، بيروت، ص 235

[44]- الخطيب القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن. الإيضاح في علوم البلاغة. ط1: 2003م، دار الكتب العلمية بيروت، ص 17

[45]- قلائد العقيان. ص 100

[46]- أبو عمر يوسف بن هارون الكندي الرمادي ولد في قرطبة سنة 314هـ، أمَّا لقبه المعروف "الرمادي" فيقال إنَّ هذه نسبة إلى مكانٍ يسمى الرمادة يقع بالمغرب، لقد كان الرماديّ من الشعرآء السُّجناء، عاش قرناً من الزمان في بلاطات حكاّم الأندلس وكان ينقد بشعره حكّام زمانه و لذلك أدخل السِّجن أحياناً و حكم عليه بالنّفي التشريد أخرى،وأنّ الرمادي قد سُجن في عهد الحكم المستنصر وفي عهد المنصور بن أبي عامر. انظر: الحميدي محمد بن فتوح. جذوة المقتبس. ط: 2008م، دار الغرب الإسلامي تيونس، ص 547

[47]- جذوة المقتبس. ص 547

[48]- أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شُهيد الأندلسي كاتب و شاعر وناقد، شيخ الحضرة العظمى و فتاها، و نادرة الفلك و أعجوبة الليل و النهار، و اطنب في الثناء على نظمه و نثره و أدبه، قد تُوفي بقرطبة سنة 426هـ، انظر: ابن الآبار، محمد بن عبد الله. إعتاب الكتّاب. ط 1: 1961م، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ص 203

[49]- إعتاب الكتَّاب. ص 204

[50]- ديوان المعتمد بن عباد. ص 110

[51]- محمد إقبال، كليات اقبال، بالِ جبريل. ط10: 2011م، اقبال اكادمى لاهور، پاكستان، ص 428